المفعول فيه زماناً، ومكاناً عند

درويش في ديوانه

«حالة حصار»

د. فضل محمد النمس *

E.mail: dr.sdl@hotmail.com

* فلسطين ـ مدينة غزة ـ جامعة الأزهر حاليّاً، والأقصى سابقاً

المفعول فيه زماناً، ومكاناً عند درويش في ديوانه «حالة حصار»

د. فضل محمد النمس

الملخص:

يعرض هذا البحث بالدراسة للمفعول فيه من أسماء زمانٍ، ومكانٍ، وما ناب عنهما، وجرى مجراهما، والإشارة إليهما، ولاستخدامات الشاعر "محمود درويش" للمفعول فيه، ولدلالاته الشعرية الخاصة في ديوان "حالة حصار".

مصطلحات أساسية: المفعول فيه زماناً ومكاناً، درويش في ديوانه، "حالة حصار"، الدلالة الشعرية.

Adverbial Object in the Poetical

Work of Darwish's "A State of Siege"

Dr. Fadhel Mohammed Al-Namas

Abstract:

The research tackles the uses of the Adverbial object and its poetical connotations related to the Mahmoud Darwish's collection of poems "A State of Siege".

Keywords: Adverbial object, poetical connotations, Mahmoud Darwish's collection, "A State of Siege".

مصطلحات البحث:

المفعول فيه:

يُسمّى عند النحاة[1] المفعول فيه، والظرف، ولعلّ تسميته بالظرف منسوبة للخليل بن أحمد الفراهيدي[2]، فهو مصطلح نحويّ بصريّ، بينما هو عند الكسائي، والفرّاء «المحلّ، أو الصفة»[3]، وهما مصطلحان كوفيّان للمفعول فيه.

وقد سُمِّيَ المفعول فيه الظرف لأنّه في اللغة الوعاء الذي توضع فيه الأشياء، ولذلك سمّى النحاة هذا النوع من المفعول تارةً المفعول فيه، وتارةً أخرى الظرف لأنّه المفعولُ الذي يُفْعَلُ الفعل فيه، ففي مثل قولنا «زرتُه يومَ الجمعة» كان «يوم الجمعة» بمثابة الوعاء ـ التحديد ـ الزَّمانيّ الذي حدثت فيه الزيارة.

وأمّا ما اصطلح النحاة عليه من تعريف للمفعول فيه:

فهو ما ضُمّنَ معنى «في» باطّراد من اسم زمانٍ أو اسم مكانٍ، أو عرضت دلالته على أحدهما، أو ما أُجري مجرى ظرف الزمان.[4]

فما تضمّن في الجملة معنى «في» باطّرادٍ مهما تغيرت العوامل التي تدخل عليه، وكان من هذه الأنواع الأربعة من الاسم: اسم زمان، أو اسم مكان، أو دلّ دلالة عارضة مؤقتة على أحدهما، أو أجرته العرب مجرى ظرف الزمان لتضمنه معنى «في» فهو في عُرف النحاة على ما سيأتي من التفصيل ظرفٌ مفعولٌ فيه.

درويش:

هو الشاعر العربيّ الفلسطينيّ الراحل محمود درويش[5] المولود في قرية البروة الفلسطينيّة عام 1941م، والمتوفى في 2008م عن عمر يناهز سبعة وستين عاماً.

ديوان «حالة حصار»:

هو محلّ الدراسة، وهو الديوان ذو القصيدة الواحدة للشاعر محمود درويش، وهو وإنْ لم يكن ديوانه الشعريّ الخاتم، فإنّه يُعَدُّ من خواتيم دواوينه حيث كُتِب نصّ هذا الديوان كما تمّ التنويه في غلافه الداخلي في العام 2002م في مدينة رام الله الفلسطينية، وذلك ليعبر عن تجربة شعوريّة خاضها الشاعر، وشعبه الفلسطينيّ في حالة من الحصار الشديد.

مدخل البحث:

لعلَّه من المناسب في هذا الزمان، وهذا المكان، والحصار يشتدُّ على الوطن الفلسطيني أنْ يقوم الباحث باتخاذ «حالة حصار» القصيدة الديوان للشاعر الراحل محمود درويش مادة للدراسة في هذا البحث، وهي القصيدة التي ترصد وجع الفلسطينيّ تحت الحصار من قَبْلِ وفاة درويشٍ، ومنْ بعدها!

ولعلَّ الظاهرة اللغويّة الأبرز التي تظهر لقارئ هذا الديوان عند الوهلة الأولى تتمثّلُ في ولوع الشاعر باستخدام المفعول فيه زماناً، ومكاناً باختلاف ألفاظه، وأنواعه، وكأنه يملكُ في كلتا يديه ناصية الزمان، والمكان الفلسطينيين، يُحدّث عنهما من خلال تجربة شاعر فلسطينيّ مكلوم.

ولهذا أحببت أنْ ألج «حالة حصار» درويش لأبحث فيها الزمان، والمكان المفعول فيهما الفعل عند درويش، ولا يعني ذلك أنْ أخوض في الديوان باحثاً عن كلِّ اسم دالٍّ على الزمان، أو المكان دون أنْ يتضمن معنى «في» ليكون مفعولاً فيه ظرفاً للزمان، أو المكان.

ولا أتصور من هذا البحث أيضاً أنْ يقوم بدراسة المفعول فيه بظرفيه الزمان، والمكان منفصلين تماماً يقسمهما إلى ظروف متصرفة، وغير متصرفة، وغير ذلك من التقسيمات الموجودة في كتب النحو التراثية[6]، فالشاعر في استخدامه اللغوي للمفعول فيه زماناً، ومكاناً بآليَّته النحوية المتقدِّمة من تضمّنه معنى «في»، وحتى باستخدامه للزمان والمكان مجردين من هذه الآلية لعدم تضمنهما معنى «في»، لم يفعل في دفقاته الشعرية المختلفة في ديوانه، أو قصيدته الشعريّة الكبيرة «حالة حصار» أن فصل في الاستخدام الزمان عن المكان، ولكنه زاوج بينهما بل لعلهما امتزجا لديه معاً في حالة حصار! حتى لا تكاد فقرة شعرية تخلو منهما معاً، أو من أحدهما يأتي وحده على استحياء.

ولذلك فإنّ هذا البحث سيعرض بعونه تعالى إلى استعمال الشاعر المفعول فيه زماناً، ومكاناً، وما لابسه من معانٍ شعرية مستأنساً في ذلك بدلالات تراكيب الديوان الشعرية، وبإشارات النحاة لمعاني الظروف المستخدمة مفعولاً فيها.

وسيعرض البحث أيضاً إلى أهم الخصائص، والسمات التي تميّز بها الاستخدام اللغوي للمفعول فيه زماناً، ومكاناً في القصيدة الديوان «حالة حصار».

أولاً ما استخدمه الشاعر مفعولاً فيه ظرفَ زمانٍ:

الآن:

يستعمل بمعنى الإشارة للوقت الحاضر الذي أنت فيه، وهو حدُّ الزمانَيْنِ حدُّ الماضي من آخره، وحدُّ المستقبلِ من أوّله[7]، وبهذا المعنى استعمله الشاعر مبنيّاً في محلّ نصب مفعول فيه ظرف زمان «أربع مرات»، ومنه قول الشاعر:

(إلى الحبّ:) يا حبُّ، يا طائر الغيب!
دَعْنا من الأزرقِ الأبديّ، وحمَّى الغياب
تعالَ إلى مطبخي لنُعدَّ العَشاءَ معا
سوف أطهو، وأنتَ تصبُّ النبيذَ،
وتختارُ ما شئت من أُغنياتٍ تُذَكرنا
بحياد المكان، وفوضى العواطف: إنْ
قيلَ إنَّكَ جنسٌ من الجنِّ... صدِّقْ !
وإنْ قيلَ إنَّك نوعٌ من الإنفلونزا...فصدِّقْ !
وحدِّقْ إليكَ، ومزِّقْ حجابك. لكنَّك الآنَ
قرْبي أليفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً، وبعد العشاء
ستختارُ لي فيلماً عاطفيًّا قديماً،
لنشهدَ كيف غدا البطلان هناك
هنا شاهدينْ.[8]

حيث استعمل الشاعر «الآن» مفعولاً فيه ظرفاً للإشارة إلى الزمان الحاضر «لكنَّك الآنَ قرْبي أليفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً»، فكم يود الشاعر - رمز الفلسطيني - ألا يعيش في الخيال بل يعاين الواقع ككل البشر لا يرى ما يحبّ فقط في خياله، بل يريده واقعاً يعيش فيه، يقول للحبِّ دعنا من الأزرق الأبدي، وحمى الغياب، تعال إلى الواقع، تعال إلى مطبخي لنعدَّ العَشاء...، ولكنْ مع كل هذا التمني هل يتحقق الأمر؟ بل يختار الحبيبان من الأغاني! ما يذكر بحياد المكان، وفوضى العواطف، ويتخيل، ويصدق أنه نوع من الجن، أو نوع من الإنفلونزا، ويتأمل! ويمزق الحجاب، ويريد أن يعود واقعياً أليفاً قرب الحبيبة يعدُّ العشاء ليختار بعده الخيال فيلماً عاطفياً قديماً يظهر فيه البطلان هناك هنا في المكان شاهدين يتحقق ذلك في الخيال القديم هناك، وفي الواقع المعيش هنا.

إذا:

تأتي «إذا» في كلام العرب وفقَ أكثر النحاة غالباً ظرفاً لما يُستقبل من الزمان تضمّن معنى الشرط، وما يليها متيقّن الكون، أو في حكم المتيقن، بخلاف «إنْ» الشرطيّة فإنّ كونَ ما يليها من عدم كونه لا رجحان بينهما، وقد مثّل النحاة لاستخدام «إذا» بمثل «آتيك إذا انتصف النهار، وأُجيبك إذا دعوتني»، فالأولى متيقنة الحدوث، والثانية في إذا كنت في حكم المتيقن[9]، وقد تخرج عن ذلك في كلامهم لمعانٍ أخرى على خلاف فيها بينهم.[10]

وقد استعمل الشاعر «إذا» في «حالة حصار» مفعولاً فيه ظرفاً لما يستقبل من الزمان تضمَّن معنى الشرط «أربع مرات»، من ذلك قول الشاعر على لسان أمٍّ لابنها في جنازته:

إذا لم تكنْ مطراً يا حبيبي
فكنْ شجراً
مشبعاً بالخصوبة .. كنْ شجراً
وإنْ لم تكن شجراً يا حبيبي
فكنْ حجراً
مشبعاً بالرطوبة ... كنْ حجراً
..... (هكذا قالت امرأة
لابنها في جنازته) [11]

حيث استعمل الشاعر «إذا» مفعولاً فيه ظرفَ زمانٍ تضمن معنى الشرط، فالأمُّ توصي ابنها في جنازته أنْ يكون أيَّ شيء يحبُّ، ولكنْ ليكن شيئاً مما يستقرُّ فيثبتُ في أرض الوطن، فإذا لم تكن مطراً، وهي متيقنة من عدم استطاعته أنْ يكونه لأنّ المطرَ رمزُ الحركة، والحياة، فإذا لم تستطع أنْ تكون مطراً يستقر فيذوب متحداً مع أرض الوطن فكنْ شجراً مفعم الخصوبة تتشبثُ جذوره على الأقلّ بأرض الوطن فيكون جزءاً غير قليلٍ منه منغرساً في هذه الأرض لا يفارقها حتى بعد موته، فإنْ لم يستطيع أنْ يكون كذلك، وهذا عندها غير متيقنٍ بل مشكوك فيه، ولذلك اختارتْ له حرف الشرط «إنْ» التي تفيد أنّها حيرى في أمر ابنها أيستطيع الثبات في الأرض حتى بعد موته فينغرس فيه كشجرة خيّرةٍ مفعمة بالخصوبة فيها من الحياة ما فيها؟ وتستبدّ بها الحيرة في النهاية فتقرر أنه لا مجال أمام ابنها في جنازته من أنْ يثبت، فينغرس في أرض الوطن، فتلجأ لأمره بفعل الأمر «كن» مباشرة دون تخييره، أو حتى السؤال عن مدى استطاعته ذلك وكأنّها وقعت على ضالّتها في النهاية، وإنْ لم تكن شجراً فكن حجراً مشبعاً بالرطوبة، والندى علامة على الخير حتى في كونه حجراً جماداً ينغرس في أرض الوطن ...ويستقرُّ الأمر مؤكداً على ذلك لا خيار بعده، فتقرر مكررةً الأمرَ منهيةً الخطاب في هذه المسألة كنْ حجراً.

بعد، وقبل:

«قَبْل» نَقيضُ «بَعْدَ»، ويُستعملان في كلام العرب ظَرْفَين للزمان، ويكونانِ للمكانِ أيضاً، فهما بحَسَبِ الإضافة إليهما.[12]

وقد استعمل الشاعر «بعد» مفعولاً فيه ظرف زمان «أربع مرات»، و«قبل» مرة واحدة، ومنه قوله:

سيمتدُّ هذا الحصارُ، حصاريَ المجازيُّ،
حتى أُعَلِّمَ نفسيَ زهدَ التأمل:
ما قبل نفسي . بكتْ سوسنةْ
وما بعد نفسي . بكتْ سوسنةْ
والمكانُ يحملقُ في عبث الأزمنةْ[13]

فقد استعمل الشاعر «قبل»، و«بعد» منصوبتين مفعولاً فيهما ظرفي زمان، وكأنَّ لهذا الحصار فائدة

فهو يمتدُّ كي يُعلِّم الشاعرَ ـ الذي يرمز للفلسطيني ـ زهدَ التأمل، فهذا هو الزمان بقسوته لا جديدَ عليه فلستَ أيُّها الفلسطينيُّ المعذَّبَ الأولَ، والأخيرَ، فما قبلك بكتْ سوسنة، وما بعدك بكتْ، والمكان ـ الوطن ـ هو المكان يحملق في عبث الأزمنة، وكأنَّ الشاعر يريد في نفسه نصر المكان على الزمان الذي عبث به، وقسا عليه.

بين:

تأتي «بين» في لغة العرب للمكان، وللزمان[14]، وقد استخدمها الشاعر في ديوانه «حالة حصار» مفعولاً فيه ظرف زمان «مرة واحدة»، وذلك في قوله:

في الحصار، تكونُ الحياةُ هيَ الوقتُ
بين تذكُّرِ أوَّلها.
ونسيانِ آخرِها.[15]

حيث استعمل الشاعر «بين» هنا مفعولاً فيه ظرف زمان، فالحياة في الحصار هي الوقت الواقع في المدة بين تذكر أولها، ونسيان آخرها، وكأنَّ المحاصَر يهرب من واقعه كي لا يتذكر واقع الحصار المرِّ، فيفرّ إلى أصوله أول حياته، فيعيده ذلك إلى التفكير في المحتل مرة أخرى مما يعود بالوبال على المحتل ليكون ذلك بعكس ما أُريد من الحصار أنْ يفعل في المحاصَرين.

حين:

الحين في كلام العرب يعني الدهر، والوقت، والمدة المبهمة غير المحددة تصلح لجميع الأزمان طالت، أو قَصُرَتْ. [16]

وقد استعمله الشاعر في ديوانه مفعولاً فيه ظرف زمان «أربع مرات»، ومن ذلك قول درويش:

ألشهيدُ يُحذِّرُني : لا تُصَدِّقْ زغاريدَهُنَّ
وصدِّقْ أبي حينَ ينظر في صورتي باكياً[17]

حيث استعمل «حين» مفعولاً فيه ظرف زمان بمعنى «وقت»، فالشهيد يحذره، لا تصدق زغاريدهن كأنها تعلن فرحهن بذهابي، فليست هي كلُّ الحقيقة، بل للحقيقة جانب آخر واقعيّ يحدث في الخفاء يجب أنْ تصدِّقَه، يبدو لك ذلك حين «وقتَ» يبكي أبي وهو ينظر في صورتي.

وقد أضاف الشاعر هنا في حالة حصار استعمالاً آخر لظرف الزمان "حين":

فاستعمله في موضعين آخرين بمعنىً يقترب من معنى الشرط علَّق به شيئاً على شيء في معنىً يقترب من معنى «حيثما» الشرطية المكانية غير أنه لم يجزم ب»حين»، ولعلَّ هذا الاستخدام ليس ببعيد من «حين» الزمانية التي قال عنها أهل اللغة هي في الزمان مثل «حيث» في المكان [18]، وذلك قوله:

نُخَزِّنُ أحزاننا في الجِرار، لئلا
يراها الجنودُ فيحتفلوا بالحصار.....
فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيةً
سوف نحزنُ كالآخرين لأشياءَ شخصيَّةٍ
خبَّأتْها عناوينُ كبرى
فلم ننتبهْ لنزيفِ الجروحِ الصغيرةِ فينا
غداً حينَ يشفى المكانُ
نُحسُّ بأعراضه الجانبيَّةْ.[19]

حيث علَّق كوننا سوف نحزن يوماً كالآخرين لأشياء شخصية غير هموم الوطن على حين تصير الحياة طبيعيَّة ننعم فيها بالحرية، وعلَّق إحساسنا بأعراض الاحتلال الجانبية من أضرار شخصيَّة على حين يشفى المكان ـ الوطن ـ من الاحتلال.

صباحاً:

الصبح، والصباح هما الفجر[20] الذي هو أول

النهار[21] عند العرب، ويكونا ظرفاً للزمان، وهما عند الفلسطيني وجه الحريّة المنير الذي ينتظرونه بعد ليل الاحتلال المُعتم.

وقد استعمل الشاعر «صباحاً» في ديوانه «مرة واحدة» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية الزمانية، وذلك في قوله:

هنا، عندَ مُرْتفعاتِ الدُّخَانِ، على دَرَجِ البيت
لا وقتَ للوقت،
نفعلُ ما يفعلُ الصاعدونَ إلى اللهِ:
ننسى الأَلمْ
الألمْ
هُوَ: أن لا تُعلِّقَ سيِّدةُ البيت حَبْلَ الغسيلِ صباحاً، وأنْ تكتفي بنظافة هذا العَلَمْ.[22]

استخدم الشاعر في هذه الدفقة الشعريّة ظرف الزمان المبهم «صباحاً» مفعولاً فيه فنصبه على الظرفية الزمانية دون أنْ يجعله معرّفاً بل أتى به «صباحاً» منكَّراً ليفيد معنى العموم فيصدق على كل صباح لنا كنَّا نتمنّى فيه أنْ يكون مضيئاً كما يُرتجى منه رمزاً للحرية، والأمل، لكنّه في ظلِّ هذا الحصار جاء على وجهٍ آخرَ يملؤه الألمُ، والعناءُ!

هنا في هذا الوطن القريب من نفس الشاعر، ومن روحه زماناً، ومكاناً «هنا! على درج البيت» تحت وطأة هذا الاحتلال الذي يمنعنا كلَّ شيءٍ، ويَحجُبُ عنا كلّ شيءٍ عن المكان عن الزمان عن الوطن بظلِّه الثقيل ب»مرتفعات الدخان» «هنا» «عندَ» «على درج البيت»، وفي ظل هذا الحصار الاحتلاليّ الخانق الطاغي ماذا نفعل؟ لا وقتَ للوقت لأيّ شيءٍ لا مجال إلا الصمود، والصبر على الألم «نفعل ما يفعل الصاعدون إلى الله ننسى الألم»، فالروح تصعد إلى بارئها تتنسم الحريّةَ بعد عهد من العبوديّة، والألم مقيّدة بهذا الجسد حبيسة بين جنباته المظلمة تنطلق منه في النهاية صاعدةً إلى بارئها في هذه اللحظة من التحرر من القيود، وجنبات الجسد المظلم تنسى كلّ ما كابدته من ظلمة، وقيود، وألم لحجزها في دنياها عن القيام بأبسط حقوقها اليوميّة، وقمة الألم ألَّا تقوم بأعمالك اليومية الضرورية البديهية بدءاً بصباح يومك، أوّل نهارك، قمّة نشاطك؛ لأنك مشغول بما هو أخطرُ أمورِ حريَّتك، ووطنك تكتفي بها عما هو من أساسيَّات حياتك، تكتفي بنظافة هذا العلم رمز الحريّة، والوطن.

عند:

تستعمل «عند» في كلام العرب ظرفاً للمكان، وظرفاً للزمان، ولذلك قال عنها النحاة تستعمل اسماً، أو أداةً لبيان الحضور المكانيّ للشيء، أو قربه، أو لبيان الحضور الزمانيّ الشيء، أو قربه[23]، وهو كما في قوله تعالى (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي) [24]، فقد جاءت «عندَ» مفعولاً فيه يفيد الحضورَ المكانيّ لما بعده، وفي قوله تعالى (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى× عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى× عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى)[25] جاءت «عند» مفعولاً فيه يُفيد قرب جنّة المأوى المكانيّ من سدرة المنتهى.

وفي قول الرسول صلى الله عليه، وسلّم «الصبرُ عندَ الصدمة الأولى»[26] جاءت فيه «عند» مفعولاً فيه يفيد الحضور الزمانيّ للصبر عند الصدمة الأولى، ومنه قولك «آتيك عندَ الظهيرة» أي مقارباً وقتها.

وقد استعملها الشاعر ست مرات أضاف لها فيها بعض الخصوصية في الاستعمال، وذلك استعماله

لها، وقد لحقتها «ما»، وكأنها بمعنى «كلَّما» الزمانية التي فيها معنى الشرط، وجاء ذلك في ثلاث مرات، ومن استعماله «عندما» الزمانية بمعنى الشرط قوله:

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، تغسلُ خَدَّ السماء
بأجنحة حُرَّة، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ
الجوِّ واللَهْو. أعلى، وأعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. ليت السماءَ حقيقيّةٌ (قال
لي رَجُلٌ عابرٌ بينَ قنبلتين)[27]

فقد استعمل «عند» مفعولاً فيه ظرفَ زمانٍ، وزاد بعده «ما»، وضمَّنَهُ معنى الشرط فعلَّق به «تطير الحمامات» على «تختفي الطائرات»، فإذا ما اختفتْ طائرات الاحتلال من سماء الوطن حلَّقت الحمامات رمز السلام تعيد للمكان، وللزمان بهاءهما.

غداً:

الغدُ في كلام العرب هو اليومُ الذي يأْتي بعدَ يومِك، وقد يُراد منه القريبَ من الزمان[28]، وقد استعمله الشاعر مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية الزمانية «مرتين» منها ما يتعرض له البحث عند حديثه عن ظرف الزمان «اليوم».

كلَّما:

مركبة من «كلّ»، و«ما»، و«كلّ» فيها منصوبة على الظرفية باتفاق النحاة[29]، وتأويل ذلك وفق المذهب الأقوى عند أكثر النحاة[30] أنّ: «كلّ» لحقتها «ما» الحرفية المصدرية الظرفيَّة النائبة عن الظرف، لا أنَّها ظرف في نفسها، فجُعِلَ المصدر المؤول المكون من «ما»، والفعل بعدها في موضع جرّ بالإضافة إلى «كلّ»، ولإفادة المصدر المؤول المضاف إلى «كلّ» الظرفية الزمانية لأنَّ المعنى في مثل قوله تعالى (كلَّما رُزقوا منْها منْ ثمرة رزقاً قالوا)[31]: «كلَّ وقتِ رزقٍ قالوا.»[32]، صارت كلّ مع ما أُضيفت إليه من مصدرٍ قائمةً مقام ظرف الزمان متضمنة معنى الشرط.

وقد استعمل الشاعر «كلَّما» في ديوانه بهذا المعنى «أربع مرات»، من ذلك قوله عن الأساطير التي هي رمز الاحتلال الذي يقوم في وجوده على الأساطير، فيزعم أنه له حقٌّ في فلسطينَ أرضِ السمن، والعسل استناداً إلى الأساطير، والخيال، لا إلى الواقع، والحجة القوية، يقول:

ولكنها لا تُغَيِّر حبكتها.
كلَّما وجدتْ واقعاً لا يلائمها
عدَّلتْه بجرَّافة،
فالحقيقة جاريةُ النصِّ، حسناءُ
بيضاءُ، من غير سوء...[33]

الاحتلال لا يغير واقعه كالأساطير التي بُنِيَ عليها لا تغير حبكتها، فكلَّ وقتِ وجودِ واقعٍ لا يلائمها أزالته بالجرافة آلة الحرب الضخمة الصماء العنيفة القاسية، لا بالحوار، والحجة لأنَّ أساطير الاحتلال لا حجة لديها، بينما الحقيقة تُبِيْنُ بكل النصوص عن نفسها، فهي واضحة تبدو للناظرين بيضاء من غير سوء.

متى:

تأتي «متى» في أكثر استعمالاتها في كلام العرب اسمٍ استفهام عن وقت أمرٍ ما، وتكون في كلامهم أيضاً ظرفاً للزمان تضمّن معنى الشرط ...[34]

وقد استعملها الشاعر في ديوانه اسم استفهام مبنيًّا في محل نصب مفعول فيه ظرف زمانٍ «مرة واحدة»، وذلك في حديثه الآتي عن أمِّ الشهيد حيث

تقول:
ثم رقصْتُ، وغنَّيْتُ حتى أُصِبْتُ
بِداءِ الشَّلَلِ
فمتى، ينتهي يا حبيبي، شهرُ العسلْ ؟[35]

منذُ:

من النحاة مَن اعتبر «منذُ»، و«مذْ» ظرفين في حكم المفعول فيهما، وإنْ وليهما اسم مجرور ـ كما استعمل الشاعر «منذ» في ديوانه ـ وعليه فالاسم المجرور بعدهما مضاف إليه، ومنهم مَن اعتبرهما حرفي جر لمجئ الاسم بعدهما مجروراً بهما؛ رأى ذلك ابن مالك في كتابه شرح التسهيل[36]، وهو الصحيح عند ابن هشام[37]، أما اعتبارهما ظرفين، فذلك إنْ جاءت بعدهما جملة نحو «ما رأيتُه منذ جاءني»، أو وليهما اسم مرفوع نحو «ما رأيتُه منذ يومان» على خلاف في ذلك بين النحاة[38].

ولعله من الممكن اعتبار «منذ» في استعمال الشاعر حرف جرٍّ بمعنى «من» لأنه استعملها، وبعدها اسم مجرور قاصداً منها بدء الغاية الزمانية، ولعلني لأجل ذلك أذكرها هنا، وإنْ كنت أرتاب من جعل «منذُ» مرة حرف جر، ومرة ظرف زمان، وأحبذُ لو أنه تم التعامل معها في كلٍّ بمكيال واحد لتكون ظرفاً لبدء الغاية الزمانية، ولعلني لأجل ذلك أصرُّ على ذكرها هنا.

وقد استعمل الشاعر «منذُ» في ديوانه «ثلاث مرات»، لبدء الغاية الزمانية، وجاء بعدها كما تقدَّم باسم مجرور ومن ذلك قول الشاعر:

قال لي كاتبٌ ساخرٌ :
لو عرفتُ النهايةَ، منذ البداية،
لم يبقَ لي عملٌ في اللغةْ[39]

حيث استعمل الشاعر «منذ» قاصداً بها بدء الغاية الزمانية، وجاء بعدها باسم مجرور «البداية» في حكمة يصوغها كاتب ساخر أنه لو عرف نهاية عمله منذ بدايته له لما كان هناك فائدة من كتابته، وإنْ كان أمر الأعمال الأدبية كذلك، فما بالك بالحياة التي يخطط لها الأعداء؟ مَنْ ذا يعرف النهاية؟ وهل ستكون كما يخططون أم ينقلب السحر على الساحر؟!

اليوم:

لعلّ الأصل في استعمال «اليوم» أنْ يدلَّ على وقت «مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها[40]، وقد يخرج عن ذلك إلى معانٍ أخرى مجازيّة، فقد استعمله الشاعر مفعولاً فيه ظرف زمان «مرة» معرَّفاً منصوباً «اليومَ»، و«مرة» منكراً منصوباً «يوماً»، وما جاء فيه معرَّفاً قوله:

كُلَّما جاءني الأمسُ، قلت له:
ليس موعدُنا اليومَ، فلتبتعدْ
وتعالَ غداً ! [41]

استعمل الشاعر هنا ثلاث أوقاتٍ يرمز بها إلى غير معناها الحقيقي المباشر:

«الأمس» بمعنى الماضي المجيد، و«اليوم» بمعنى الواقع والحاضر من الاحتلال، والحصار المؤلم، و«غداً» بمعنى المستقبل الذي يرجو له أنْ يكون مشرقاً كالأمس من الماضي المجيد.

فقد جاء «اليوم» المجازيّ هنا ـ وإنْ كان لا يعني به الوقت المعلوم المتقدّم ـ مفعولاً فيه ظرفَ زمانٍ معرَّفاً بأل مختصاً، يصلح للنصب على الظرفية الزمانية لتضمنه معنى «في»، ويصلح أنْ يكون خبر «ليس» منصوباً، لأنَّ اسمها «موعدنا» لم يأتِ به اسم ذات.

وفي هذا الوقت من الحصار كلّما مرّ بخاطر الشاعر الأمسُ طيفُ الماضي التليد كأنّه الحلم السعيد، يصرفه الشاعر عن خاطره حزناً، وحرقةً، فليس الوقتُ الحاضر موعدك بل المستقبل القريب الزاهر بالمجد، والحرية، أو هكذا يرجو له الشاعر.

ثانياً: ما كان مفعولاً فيه للمكان، واستعمله الشاعر للزمان:

بعض الظروف لم تستعملها العرب إلا للمكان، أو لعلَّ الغالب في استعمالها اللغوي أنها للمكان وجاءت في استعمال الشاعر للزمان من ذلك:

أمام:

هي من الأسماء التي تستعملها العرب ظرف مكان[42]، وقد استعملها الشاعر تصلح أنْ تكون مفعولاً فيه ظرف زمان «مرة واحدة» في قوله:

هنا، عند مُنْحَدَرات التلال، أمامَ الغروب،
وفُوَّهَة الوقت،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعة الظل،
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،
وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ.[43]

فلعلَّنا نفهم من قوله «أمام الغروب، وفوهة الوقت» أننا نحن المحاصَرين هنا في هذا المكان عند منحدرات التلال، وكأنَّ الوقت ينحدر مع هذه التلال رمز الوطن إلى هذا الزمان أمام الغروب المتوقع للاحتلال بعد شدة هذا الحصار، إلى هذا الوقت ماذا نفعل نحن المحاصَرين؟ ككلِّ السجناء، والذين مُنعوا من العمل نُربِّي الأمل في الحرية، ونسعى إليها بكلِّ السبل بعكس الغرض من الحصار الذي يريد أن يدفعنا إلى اليأس، والاستسلام.

وبهذا المعنى يكون الشاعر استخدم «أمام» الظرف الذي يستخدم للمكان لإفادة معنى ظرف الزمان، يساعدنا على هذا الفهم أنه أَتْبَع قوله «أمام الغروب» بقوله «وفوهة الوقت»، فعطف على المضاف إليه المجرور «الغروب» قولَه « فوهة الوقت » بالجر، مما يعني أنه أراد بالغروب هنا زمانه، لا مكانه، ولذا عطف عليه الوقت ذي الفُوَّهة بالجر، ولعلَّ الشاعر استعار الفوهة للوقت ليشبِّهَه بالبندقيَّة، وحذف المشبه به، وأبقى على شيء من لوازمه، وهو الفوَّهةُ التي إذا ما أُطلقت تَذكَّر السامعُ الفلسطينيُّ من خلالها فُوَّهةَ بندقيَّة الاحتلال التي تلاحقه صباحَ مساءَ في الواقع الذي يعيشه، وفي أخباره التي يشاهدها عبر وسائل الإعلام المختلفة، وكأنَّ الشاعر يريد أنْ يقول إنَّ أمرنا معَ الاحتلال وقتَ الحصار كأنَّنا - والأمور تتسارع بنا - عند منحدرات التلال أمام وقت الغروب، وفوهة الوقت الذي هو كالبندقية تخرج منها الرصاصة لا تعود أبداً إلى أنْ تستقر في مكانها، ما زلنا نربِّي الأمل في وقتٍ يغرُب فيه الاحتلال، ويتحرَّر الوطن، ونحن في هذا ككلِّ السجناء في مثل هذه الظروف يربُّون الأمل في تحرّرهم من سجنهم.

هنا:

استعملها الشاعر للزمان « مرة واحدة »، وسأشير إلى ذلك إنْ شاء الله تعالى عند الحديث عن الإشارة إلى الزمان، والمكان.

ثالثاً: ما استخدمه مفعولاً فيه ظرفَ مكان:

أمام:

استعمل الشاعر «أمام» مفعولاً فيه ظرف مكان في حالة حصار «مرتين»، منها قوله على لسان والد الشهيد يبكيه في لقطة واقعية يحدثه:

كيفَ بدَّلْتَ أدوارَنا، يا ُبنيَّ،
وسرتَ أمامي؟[44]

أين:

تأتي «أَيْنَ» في كلامهم استفهاماً عن المكان مثل «أين زيدٌ؟»، وتكون أيضاً للمكان متضمنة معنى الشرط مثل «أَيْنَ لقيتَ زيداً فكلِّمْهُ» بمعنى في أي مكان[45].

وقد استعمل الشاعر «أين» اسم استفهام مبنيًّا في محل نصب مفعولٍ فيه ظرفِ مكانٍ «ثلاث مرات»، منها قوله:

أَلشهيدُ يُحاصرُني كُلَّما عِشْتُ يوماً جديداً
ويسألني: أَين كُنْتَ؟
أَعدْ للقواميس كُلَّ الكلام الذي
كُنْتَ أَهْدَيْتَنيه،
وخفِّفْ عن النائمين طنين الصدى! [46]

«أينَ كنت؟» يسأل الشهيدُ الشاعرَ أين كنتَ من أرض المعركة حين استُشهِدْتُ؟ وقد حرَّضْتَني، وحرَّضْتَ غيري، وكأنَّه ما لكلامكَ عليك أولاً من فائدة، أعد للقواميس كلَّ كلام قلته، وخفف عنا هذا الضجيج!

بين:

تقدم استعمال الشاعر « بين « مفعولاً فيه ظرف زمان، وقد استعملها أيضاً مفعولاً فيه ظرف مكان «خمس مرات»، ومنه قوله:

يقيسُ الجنودُ المسافةَ بينَ الوجودِ
وبين العَدَمْ [47]
بمنظار دبّابة...
نقيسُ المسافةَ ما بينَ أَجسادنا
والقذائفِ[48] **بالحاسّة السادسةْ.**[49]

استعمل الشاعر «بين» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية في مقارنة بيننا الشعب الأعزل، وبين جنود الاحتلال المدججين بأحدث أنواع الأسلحة، فهم يقيسون المسافة بين وجودهم، وعدمنا بمنظار دباباتهم، ونحن نقيس المسافة بين قذائفهم، وأجسادنا لا بشيء يكافئ ذلك من الأسلحة، وإنما بحاستنا السادسة!

تحت:

وهو ظرف للمكان من أسماء الجهات يقابله «فوق»، استعمله الشاعر مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية «ثلاث مرات»، منها قوله:

لا صدىً هوميريّ لشيء.....
هنا جنرالٌ يُنَقِّبُ عن دَوْلَةٍ نائمةْ
تحت أَنقاضِ طُرْوَادَةَ القادمةْ.[50]

لا صدى عندنا لأي حرب إعلامية يخوضها العدو لتدعم حقه الأسطوريّ في وجوده على أرضنا، وإنْ كان هنا جيش العدو يدمر كلَّ شيء في الوطن محاولاً على حدِّ زعمه البحث عن آثار دولته النائمة تحت أنقاضنا في كلِّ حرب قادمة.

حول:

حولُ الشخص جانبه[51] الذي يمكنه أنْ يتحرك إليه، ويشمل جميع اتجاهاته التي بجانبه لا يقصدون جانباً دون الآخر، ولذلك يقولون «نَظَرَ حَوْلَهُ» كأنّه فعل ذلك في دائرة، وقد استعمله الشاعر «مرة واحدة» في «حالة حصار» بهذا المعنى مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية مضافاً إلى «ياء المتكلم» في الحديث عن «أم الشهيد» في قوله:

مضى الساهرون ولم تبقَ إلا سلالُ
البنفسج حولي. تساءلتُ : أين
العروسانِ؟[52].....

حيثُ:

هي عند أغلب النحاة، وأهل اللغة كلمة دالَّة على المكان، وأغلب استعمالها في كلام العرب أنْ تكون مبنيّة على الضم في محلّ نصب على الظرفيّة المكانيّة، وقد تأتي قليلاً وفقَ الأخفش من النحاة البصريين دالّة على الزمان، ولذلك يجب النظر في المضاف إليه ويكون جملة بعدها؛ لأنه مؤشرٌ فهمِ دلالتها.

وقد تدخل «ما» الكافة الزائدة على «حيث» فتكفها عن الإضافة، وتأتي بعدها مضمّنة معنى الشرط، وفيها تفصيلات لأهل اللغة، والنحاة.[53]

وقد استعمل الشاعر «حيثُ» في محل نصب مفعولٍ فيه ظرف مكان «مرة واحدة»، وذلك في قوله:

ألسلامُ انكسارُ السيوف أمامَ الجَمَال
الطبيعيِّ، حيثُ يَفُلُّ الحديدَ الندى.[54]

خارجَ، داخلَ:

استعمل الشاعر كلاً من « خارجَ، وداخلَ « مفعولاً فيه منصوبين على الظرفية المكانية مرة واحدة، وذلك خروجاً على المشهور من الآلية النحوية لظروف المكان، فموقف ابن مالك، وبعض النحاة من مثل هذه الظروف أنها ظروف مكان مختصة، فهي تدلُّ على معنى لا يصلح لكلّ مكان، ومن ثَمّ إذا قصد بشيء منها معنى الظرفية لازمت لفظ «في»، أو ما في معناها، وما جاء منها عكس ذلك فيحفظ، ولا يقاس عليه، ولعلّ أقلَّ شهرةً من هذه الآليّة النحوية لمثل هذا النوع من التركيب اعتبار هذا النوع من المكان المختص مفعولاً فيه ظرف مكان على التوسع تشبيهاً للمكان المختص بغير المختص[55].

ولعلّه من الواضح أنّ استعمال الشاعر لكلٍّ من «خارجَ، وداخلَ» منصوبين مفعولاً فيهما على الظرفيّة المكانية جاء موافقاً المذهب الثاني، وإلا كان علينا فيما لا لزومَ له أنْ نعيد صياغة قول الشاعر الآتي: لا جماليَّ في خارج حريتي، وأسمع وقع الخطى في داخلي، وهذا ممّا يُخرجه عن الشعريّة.

وقد جاء ذلك في قول الشاعر:

الشهيدُ يُعَلِّمني: لا جماليَّ خارجَ حريتي.[56]

فالشهيد يعلِّمنا أنْ لا شيءَ جميلٌ في مكان هو خارج إطار حريته.

ومثله قول الشاعر:

وفي ما تبقَّى من الفجرِ أمشي إلى خارجي
وفي ما تبقَّى من الليل أسمعُ وقعَ الخُطى داخلي[57]

حيث استعمل الشاعر «داخلَ» مضافة إلى ياء المتكلم فيما يمكن أنْ يعتبر مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية، ففيما تبقى له من الحرية ـ والفجر رمزها ـ يمشي إلى خارج نفسه! حسب القَدْرِ المتاح له من الحرية، وفيما تبقى له من جبروت الاحتلال، وحصاره يسمع وقع الخطى داخلَ نفسه، لا يغادرها حسبما فرض عليه الحصار، والإقامة الجبرية.

ومن الممكن ل» خارج، وداخل « أنْ يعرب كلٌّ منهما أيضاً إعراباً شاذاً منصوبين على نزع الخافض، والنصبُ على نزع الخافض يُسمع، ولا يقاس عليه.

خلف:

تستعمل «خَلْفُ» في كلامهم نقيض «قُدَّام»، فتكون اسماً لهذه الجهة، وتكون مفعولاً فيه ظرفَ مكانٍ منصوباً.[58]

وقد استعمل الشاعر «خلف» في ديوانه مفعولاً فيه ظرف مكان «ثلاث مرات»، ومنه قوله:

شَجَرُ السَّرْوِ، خلفَ الجنود، مآذنُ
تحمي السماءَ من الانحدار. وخلفَ سياجِ

الحديد جنودٌ يبولون . تحت حراسة دبَّابة
والنهارُ الخريفيُّ يُكْملُ نُزْهَتَهُ الذهبيَّةَ
في شارعٍ واسع كالكنيسة
بعد صلاة الأحد...[59]

استعمل الشاعر «خلف» في هذه الفقرة الشعرية «مرتين» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية، وكأنّ هذه الفقرة الشعرية لوحة رسام يظهر فيها شجرُ السَّرْوِ خلفَ جنود الاحتلال، وكأنه مآذن، وفيها السماء التي توشك أنْ تنقضَّ على الجنود لا يمنعها من ذلك إلا شجر السرو الذي بَدَا كالمآذن، وبالرغم من ذلك يبقى خوف الجنود خلف السياج يفعلون كلَّ شيء تحت حراسة دباباتهم حتى في الضروري يبولون تحت حراسة هذه الدبابات.

دون:

تستعمل في لغة العرب ظرفاً ونادراً ما تغادر الظرفية[60]، وتقتضي التقصير عن الغاية، إمّا في المنزلة، أو في القرب، والبُعد.[61]، وقد استعملها الشاعر في ديوانه مفعولاً فيه ظرفَ مكانٍ منصوباً «مرة واحدة»، وذلك قوله:

حريتي! عَوِّديني
عليك. خذيني إلى ما وراء المفاهيم كي
نصبحَ اثنين في واحد!
كيفَ أَحْملُها، كيفَ تَحْملُني، كيفَ أُصبح سيِّدَها
وأنا عبدُها. كيفَ أجعلُ حُريَّتي حُرةً
دونَ أنْ نفترق؟[62]

استعمل الشاعر «دون» مفعولاً فيه ظرفَ مكانٍ متخيَّلاً حريَّته التي طالما حرمَه الاحتلالُ، والحصارُ منها شخصاً غريباً منفصلاً عنه، فيخاطبها منادياً بكلِّ قوته كي تُعوِّده عليها بعد أنْ تعوّد غربَتَها ليلتحمَ معها بعد طول غياب في شخص واحد في مكان واحد دون أنْ يفترقا، فهو كما يتخيلُ بعدَ طولِ عبوديته تحت الاحتلال يريد لحرّيته أنْ تكونَ حرّة؛ إذ كيف يصبح سيدها، وهو عبدها الذي ظلّ يحلم بها طوال عمره، يريد لحريّته أنْ تكون حرةً إلى أقصى غايةٍ تبلغها دون أنْ تصل حدّ مفارقته!

عند:

تقدم أنّها للزمان، وللمكان، وتقدّم استعمالُ الشاعر لها مفعولاً فيه ظرف زمان، وقد استخدمها أيضاً مفعولاً فيه ظرف مكان «مرّتين»، ومنه استعمالها للدلالة على الحضور المكانيّ في قوله:

هنا، عند مُرْتَفَعات الدُخان، على دَرَجِ البيت
لا وَقْتَ للوقت،
نفعلُ ما يفعلُ الصاعدونَ إلى الله:
ننسى الألَمْ.[63]

وفي الحديث عن المفعول فيه الزمانيّ «صباحاً» اكتملتْ مقاربةُ هذه الدفقة الشعرية بوجهها الزمانيّ، والمكانيّ، فيما لا داعي لتكراره هنا.

فوق:

تُستعمل ظرفاً للمكان من أسماء الجهات، وهي نقيض «تحت»، وقد استعمل الشاعر «فوق» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية «مرتين»، منها قوله:

السلامُ حنينُ عَدُوَّيْن، كُلٌّ على حدَةٍ
للتثاؤبِ فوقَ رصيفِ الضَّجرْ[64]

حيث جاءتْ «فوق» مفعولاً فيه ظرفَ مكانٍ منصوباً في تعبير مجازي يفيد أنه بعد أن يُحسَّ كلٌّ من العدوين بالملل، والضجر مما هما فيه يكون توجههما للسلام.

مع:

هي اسم لمكان الاصطحاب، أو وقته حسب ما يليق بالمصاحب[65]، وقد استعملها الشاعر في ديوانه مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية «ثلاث مرات»، ومنه قول الشاعر:

أَيُّها الواقفون على العَتَبات ادخُلُوا،
واشربوا معَنا القهوةَ العربيَّةَ
(قد تشعرون بأنكمُ بَشَرٌ مثلنا).
أَيُّها الواقفون على عتبات البيوت،
أُخرجوا من صباحاتنا،
نطمئنّ إلى أَننا
بَشَرٌ مثلكُم! [66]

استخدم الشاعر «مع» ظرفَ مكانٍ يدلّ على المصاحبة، حيث نادى الآخرين المحاصِرين المتربصين الواقفين على الحدود على عتبات البيت داعياً إياهم إلى السلام ليشربوا معنا مصاحبينا في مكاننا القهوة العربية محاولين فهمنا، ليخرجوا من بيوتنا، وليقتنعوا، ولنقتنع أننا، وأنهم بشر مثلنا مثلهم!

نحو:

النَّحْوُ: القَصدُ والطَّريقُ، يكون ظرفاً ويكون اسماً، وهو في الأَصل مصدرُ «نَحَوْتُ نَحْواً» بمعنى قَصَدْت قَصْداً، ثمّ استعملته العرب مفعولاً فيه ظَرْفاً للمكان يعني القَصْدَ نَحْوَ الشيء، وناحيته، وتجاهه[67]

وقد استعمل الشاعر «نحو» بهذا المعنى؛ لتكون مفعولاً فيه ظرف مكان «ثلاث مرات»، ومن ذلك قوله:

الأساطيرُ ترفُضُ تَعْديلَ حَبْكَتها
رُبَّما مَسَّها خَلَلٌ طارئٌ
ربما جَنَحَتْ سُفُنٌ نحوَ يابسةٍ
غيرِ مأهولة،
فأصيبَ الخياليُّ بالواقعيِّ. [68]

الاحتلال كما تقدَّم[69]، لا يغير واقعه كالأساطير التي بُنِيَ عليها لا تغير حبكتها، خوفاً من أنْ يمسَّها في تتابعها خللٌ غير محسوبٍ حسابُه، أو ربَّما لاقتْ هذه الأساطير عقولاً خالية غير مأهولة بالحقيقة، فالتبس لديها الأمرُ فصدَّقتْ ما يُشاع من أساطير فأُصيب الخياليُّ بالواقعيّ.

هنا :

استعملها الشاعر مفعولاً فيه ظرف مكان «23 مرة»، وسيعرض لها البحث في الحديث عن الإشارة إلى الزمان، والمكان.

وراء:

تستعمل العرب «وراء» في كلامها تعني لخَلْف، ولقُدّام وأصل معناها ما تَوارَى عنك واسْتَتر[70]، ولعلّهم لأجلِ ذلك يكثرون من استعمالها مفعولاً فيه ظرفاً للمكان بمعنى «خلف» لأنّ ما كان في الخلف توارى، واستتر!

وقد استعمل الشاعر «وراء» في ديوانه مفعولاً فيه ظرف مكان بهذه المعاني «مرتين»، منها قوله:

على الروح أن تترجَّلْ
وتمشي على قَدَمَيْها الحريريّتين
إلى جانبي، ويداً بيد، هكذا صاحِبَين
قديمين يقتسمانِ الرغيفَ القديم
وكأسَ النبيذِ القديم
لنقطع هذا الطريق معاً
ثم تذهب أَيَّامُنا في اتجاهَيْنِ مختَلِفَيْنْ:
أَنا ما وراءَ الطبيعةِ. أَمَّا هِيَ

فتختار أَن تجلس القرفصاءَ
على صخرة عاليةْ. [71]

ف «وراء» فيما وراء الطبيعة مفعول فيه منصوب على الظرفية المكانية، حيث يتخيل الشاعر الروح شيئاً منفصلاً عن الجسد، وعليها في ظلِّ هذا الحصار الخانق أنْ تمشي بجواره على قدميها الحريريتين، ويداً بيدٍ صاحبين على الحُلوة والمرَّة! يقتسمان الشدّة والرخاء، ليقطعا معاً هذا الطريق الذي يرمز إلى المكان، وإلى حرية الوطن، ثم في نهاية المطاف بعد انقضاء الزمان يذهب كلٌّ منهما في اتجاه مخالف، الشاعر يتوارى، ويستتر فيما وراءَ الطبيعة، والروح لا سيطرة للمحتل المحاصِر عليها، فتختار أنْ تبقى في المكان لا تبارح الوطن، تختار الحرية فيه لتجلس القرفصاءَ على صخرة عالية فيه.

وَسَطَ:

تأتي «وَسْطَ» في كلام العرب ساكنة «السين» ظرفَ مكانٍ، وتأتي «وَسَطَ» أيضاً متحرّكة «السين» بالفتحة فتكون اسماً دالّاً على المكان، أو ظرفَ مكانٍ أيضاً، على تفصيلٍ وخلافٍ بين النحاة البصريين، والكوفيين.[72]

وقد استعمل الشاعر «وَسَطَ» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية في «موضع واحد» في قوله:

الحصارُ هُوَ الانتظار
هُوَ الانتظارُ على سُلَّمٍ مائلٍ وَسَطَ العاصفةْ. [73]

رابعاً الإشارة إلى المكان، والزمان:

استعملت العرب «هُنَا» في كلامها:

اسماً يشار به للمكان القريب، مثلما جاء في قوله تعالى (إِنَّا هاهنا قَاعِدُونَ)[74]، وهو الأكثر في كلام العرب، وقد يستعار فيشار به للزمان اتساعاً، وخُرِّج عليه قوله عزَّ، وجلَّ (هُنَالِكَ تَبْلُوْ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَت) [75]، وقوله عزَّ قائلاً (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّه)[76].

وقد استعمل الشاعر محمود درويش في ديوانه هذا الأسلوب في الإشارة فأكثر منه، وأكثرُ استعماله له كان في الإشارة إلى المكان، فقد استعمله «23 مرة» للمكان كما نمثل له لاحقاً، ولعلَّه لم يستعمله في الإشارة للزمان إلا «مرة واحدة»، وهي قوله:

هنا، بعد أَشعار «أَيّوبَ» لم ننتظر أَحداً...[77]

حيث استعمل الشاعر «هنا» اسماً يُشار به إلى الزمان في موضع نصب مفعول فيه ظرف زمان ليقول:

هنا في هذه الفترة الزمانية من الحصار، وشدة الصبر بعد تلاوتنا أشعار أيوب، وطول صبرنا لم ننتظر أحداً لرفع هذا الحصار الذي علينا كسره بأنفسنا جميعاً حيث «هنا، لا أنا..هنا يتذكر آدم صلصاله»[78]، ولن يُكسر هذا الحصار «حتى نعلم أعداءنا نماذج من شعرنا الجاهلي».[79]

الحروف التي أدخلها الشاعر عليه:

تدخل على «هنا» في الاستعمال اللغوي عند العرب ثلاثة حروف، وقد استعملها الشاعر في الإشارة ب«هنا» في ديوانه «حالة حصار»، وهذه الأحرف هي:

أ- «ها» التنبيه:

حيث نقول «هاهنا» كما في قوله تعالى (اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)[80].

وقد استعمل الشاعر «هنا» تسبقها «ها» التنبيه في «حالة حصار» مرة واحدة فقط حيث قال:

يَجِدُ الوقتَ للسُخْرِيَةْ:
هاتفي لا يَرِنُّ
ولا جَرَسُ البابِ أيضاً يَرِنُّ

فكيف تيقَّنت من أنني
لمْ أكنْ ههنا؟ [81]

فقد استخدم الشاعر اسم الإشارة للمكان القريب «هنا» التي يعشقها، ويكررها كلما حانت له فرصة للإشارة للمكان القريب إلى نفسه، ولكنه ههنا أرفقها «ها التنبيه»، وكأنه يريد أنْ ينبِّه بها مَنْ لم ينتبه من كثرة تكرار الإشارة إلى المكان إلى هذه المكانة.

ب- كاف الخطاب:

وتستخدم في كلام العرب تلحق «هنا» إذا كان المشار إليه بعيداً، فتقول «هناك زينبُ»، إشارة إلى مكانها البعيد.

وقد استعمل الشاعر «هنا» تليها «كاف الخطاب» في «حالة حصار» «ثلاث مراتٍ» للإشارة إلى المكان البعيد، ومن ذلك قوله:

على طَلَلي يَنْبُتُ الظلُّ أخضرَ،
والذئبُ يغفو على شَعْر شاتي
ويحلُمُ مثلي،
ومثلَ الملاكْ
بأنَّ الحياةَ هنا
لا هناكْ... [82]

فقد استعمل الشاعر «هنا» في هذه الدَّفقة الشعرية مرتين:

الأولى: استعمل فيها «هنا» دون إضافاتٍ، فلا سوابق، ولا لواحق، وذلك للإشارة إلى المكان القريب، القريب إلى نفسه «الوطن».

وفي الثانية: استعملها «هناك» في نهايتها «كاف الخطاب» للإشارة إلى المكان البعيد الذي هو سوى الوطن، فالحياةُ هنا في الوطن - لا هناك في غيره - حلمُ كلِّ إنسان، ولكنْ على طلل الفلسطيني، على بقايا وطنه ينمو الاحتلال، ولكليهما. الفلسطينيّ والمحتلّ. حلمٌ واحدٌ يحلمان به مثلَ الملاك بأنّ الحياة هنا في هذا الوطن لا هناك في غيره!

ج- لام البعد:

تلحق «هنا» قبل «كاف الخطاب» إذا كان المشار إليه فيه مبالغة في البعد فتقول «هنالك زينبُ» إشارة للمبالغة في بُعد مكانها، ومنه قوله تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ) [83].

وقد استعمل الشاعر «هنا» تليها «لام البعد»، و«كاف الخطاب» في حالة حصار «مرة واحدة» للدلالة على شدة بعد المكان؛ حيث قال في أحوال والدة الشهيد إثر استشهاده:

قالت الأمُّ: في بادئ الأمر لم
أفهم الأمرَ. قالوا تزوَّجَ منذُ
قليلٍ. فزغْردْتُ، ثم رقصتُ، وغنَّيْتُ
حتى الهزيع الأخير من الليل، حيثُ
مضى الساهرونَ، ولم تبقَ إلا سلالُ
البنفسج حولي. تساءلتُ : أين العروسان؟
قيلَ: هنالكَ فوقَ السماء ملاكان
يستكملانِ طقوسَ الزواج. فزغردْتُ،
ثم رقصتُ، وغنَّيْت حتى أُصِبْتُ
بداء الشَّلل
فمتى، ينتهي يا حبيبي، شهرُ العسلْ؟ [84]

مشهد كامل بكل تفصيلاته يُدشِّنُه الشاعر هنا لأم الشهيد في لحظة استشهاده، يمتزج فيه الزمان بالمكان، يفسر فيه زغرودة أم الشهيد، فللوهلة الأولى قد يُظَنُّ كما يقول الأعداء أنها - الأم الفلسطينية - تفرح بوفاة ولدها، أو قتله، ولذلك ترسله إلى الموت،

ولكنْ لا؛ إنه عندها تزوَّج الأرض، تزوج المكان، تزوج الوطن، عَمَّدَه بدمائه الزكية، فزغردت الأمُّ لفرح العريس، ورقصت، وغنَّت، وطربت كما تفعل كلُّ الأمهات في العالم في يوم زواج أبنائهنَّ! وبالغت في وقت اختلاطِ المشاعرِ: الفرحِ بالحزنِ، الزمانِ بالمكانِ، الليلِ بالنهارِ بالأشخاصِ الساهرين، ثم الاصطدام بالحقيقة، ففي الهزيع الأخير من الليل رحل المواسون المشاركون في عرس الشهيد، ولم يبق إلا الأمُّ مع نفسها، وسلال البنفسج، فأين مكان العروسين؟ ولا مكان، تتساءل الأم الثكلى عن مكانهما فيُقال لها: هنالك في السماء، وإشارةً لبعدِ المكانِ مسافةً، ومنزلةً أشار له ب"هنا"، وأتبعها "لام البعد"، و "كاف الخطاب" للدلالة على الوحشة بالبعد الشديد للمكان، وإنْ كان في السماء! فالعروسان ملاكان في السماء يستكملان طقوس الزواج، وتعود الأم لحفلها بوعي، ومن غير وعي تزغرد، وترقص، وتغني إلى النهاية الواقعية، فينفطر فؤادها حزناً، تصاب الأم بالشلل، وتتمنى: متى ينتهي شهر العسل بعودة حميدة للعروسين!

خامساً: ما دلَّ على الزمان، والمكان دلالةً عارضةً:

ممَّا تستخدمه العرب مفعولاً فيه أربعة أمور تدلُّ دلالةً عارضةً على الزمان، أو المكان، وهي في أصل وضعها في اللغة موضوعة للدلالة على غير الزمان، والمكان لكنها قد تدلّ عليهما دلالة مؤقتة، وهذه الأمور هي: [85]

1- العدد:

العدد في أصل وضعه في اللغة يدلّ على المعدود، وليس على الزمان، أو المكان، ولكنه قد يدلّ عليهما دلالةً عارضةً مؤقتةً، إذا وقع تمييزه زماناً، أو مكاناً، مثل قولك «سرت عشرين فرسخاً ثلاثين يوماً»، فالعددان «عشرين، وثلاثين» كلٌّ منهما مفعولٌ فيه لأنّ الأول عرضت دلالته على الزمان لتميُّزه به، والثاني عرضت دلالته على المكان لتميُّزه به.

ومنه استعمال الشاعر العدد «ثلاثين» تعرض دلالته على الزمان، فيقع نيابة عن اسم الزمان مفعولاً فيه ـ ظرف زمان ـ «مرة واحدة»، وذلك في قول الشاعر:

(إلي قاتل آخر:) لو تَرَكْتَ الجنينَ
ثلاثين يوماً، إذاً لتغيَّرت الاحتمالاتُ:
قد ينتهي الاحتلالُ، ولا يتذكَّرُ ذاك
الرضيعُ زمانَ الحصار،
فيكبرُ طفلاً معافىً، ويصبحُ شاباً،
ويدرُسُ في معهدٍ واحد مع إحدى بناتِكَ
تاريخَ آسيا القديمَ.
وقد يقعان معاً في شباك الغرام.
وقد يُنْجبان ابنةً (وتكونُ يهوديَّةً بالولادة).
ماذا فَعَلْتَ إذاً؟
صارت ابنتُكَ الآن أرملةً،
والحفيدةُ صارت يتيمةْ؟
فماذا فَعَلْتَ بأُسرتكَ الشاردةْ
وكيف أَصَبْتَ ثلاثَ حمائمَ بالطلقة الواحدةْ ؟[86]

استخدم الشاعر العدد «ثلاثين» تعرض دلالته على الزمان حيث جاء مميزاً بالزمان «يوماً» فناب عنه فانتصب مفعولاً فيه ظرفَ زمان.

ومنه مفعولاً فيه نائباً عن ظرف المكان قول الشاعر:

كتبتُ عن الحبِّ عشرين سطراً
فخُيِّلَ لي
أنَّ هذا الحصارَ تراجع عشرين متراً !.. [87]

فالشاعر هنا يتحدث عن الحب، والأغنية، والحبيبة علّ هذا الحصار يتراجع، فيُخيَّلُ إليه أنَّ هذا الحصار تراجع عشرين متراً ! ليكون العدد «عشرين» مفعولاً فيه منصوباً نيابة عن ظرف المكان لأنه تميز بالمكان «متراً».

2- ما أفيد به كلية أحدهما، أو جزئيته:

ويقصد به إذا أضيف الزمان، أو المكان إلى «كل»، أو «بعض»، أو ما أفاد معناهما مما يفيد كلية أحدهما، أو جزئيته مثل قولك «صمتُ كلَّ الشهر، أو بعضَ الشهر، أو نصفَ الشهر»، أو «سرتُ كلَّ الفرسخ، أو بعضَ الفرسخ، أو نصفَ الفرسخ»، فكلُّ ذلك مما دلَّ دلالةً مؤقتةً على الزمان، أو المكان لإفادة كليَّة أحدهما، أو جزئيته يعرب مفعولاً فيه، إذا تضمن معنى «في» باطراد مثل اسمي الزمان، والمكان.

ومنه استعمال الشاعر «كلّ» في هذا المجال في قوله:

خسائرُنا: من شهيدين حتى ثمانيةٍ
كُلَّ يوم.
وعَشْرَةً جرحى.
وعشرون بيتاً. [88]

حيث جاء ب «كل»، وقد أضيفت لاسم الزمان «يوم» لتدل دلالة عارضة على الزمان مما جعلها تنوب عنه في الانتصاب مفعولاً فيه نيابة عن ظرف الزمان.

3- ما كان صفةً لأحدهما، ثم أنيب عنه بعد حذفه:

حيث تأتي صفة الزمان، أو المكان منصوبة على المفعول فيه لكون الصفة عرضت دلالتها على الزمان، أو المكان كما مثَّل النحاة له «جلستُ طويلاً من الدهر شرقيَّ الدار»، والتقدير: جلست وقتاً طويلاً من الدهر مكاناً شرقيَّ الدار، ولكنهم حذفوا الموصوف «وقتاً، ومكاناً» المفعول فيهما للدلالة عليهما بالجار، والمجرور «من الدهر» مع الزمان، وبالوصف بالاتجاه «شرقي الدار» مع المكان، وأقاموا الصفة «طويلاً، وشرقيَّ» التي دلَّت هنا دلالة عارضةً على الزمان، والمكان مقام موصوفها، وأعربوها بإعرابه ليكون كلٌّ منها مفعولاً فيه.

ومنه قول الشاعر:

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ، تغسلُ خَدَّ السماء
بأجنحة حُرَّة، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ الجوِّ واللَهْو. أعلى، وأعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. ليتَ السماءَ حقيقيّةٌ (قال
لي رَجُلٌ عابرٌ بينَ قنبلتين)[89]

حيث استعمل الشاعر «أعلى» مفعولاً فيه ظرف مكان، وهي في أصل استعمالها اللغوي وصف «أفعل تفضيل»، وجاز في «أعلى» ذلك لأنها دلَّت دلالة عارضة على المكان لأنها وصف لمكان أنيبت عنه بعد حذفه، وتقدير الكلام: مكاناً أعلى تطير الحمامات[90]

ولعلَّ مثله في استعمال الشاعر قوله:

يَقُولُ لها: أَيّ زهرٍ تحبِّينَهُ
فتقولُ: أحبُّ القُرُنْفُلَ.. أَسودْ
يقول: إلى أَين تمضينَ بي،

والقرنفلُ أَسودْ ؟

تقول: إلى بُؤرة الضوء في داخلي

وتقولُ: وأَبْعَدَ... أَبْعدَ... أَبْعَدْ[91]

حيث استعمل أفعل التفضيل "أبعدَ" مكرّراً مفعولاً فيه ظرف مكان، وهو في أصل استعماله وصف، ولما كان هنا وصفاً لمكان حُذف، ودلَّ دلالة عارضةً مؤقتةً عليه، فقد أنابه عنه بعد حذفه، والتقدير: أمضي بك إلى بؤرة الضوء في داخلي، وأمضي بك مكاناً أبعد.. أبعد، ولعلّ هذا الحذف أعطى الكلام نوعاً من الاختصار، وزيادة مقصودة في الدلالة، فكأنه صوت في الفضاء الواسع يتردد في جنباته أبعدَ، وأبعدَ.

4- ما كان مخفوضاً بإضافة أحدهما، ثم أُنيب عنه بعد حذفه:

قد يُحذف في كلام العرب المضاف، ويُقام المضاف إليه مقامه ويُعربُ بإعرابه، وإذا كان هذا المضاف المحذوف زماناً، أو مكاناً، وأقيم المضاف إليه مقامه، أُعربَ نيابةً عنه بإعرابه مفعولاً فيه لأنه يدلّ هنا دلالة عارضة على الزمان، والمكان.

والأكثر في المضاف المحذوف أن يكون زماناً، والأكثر في المضاف إليه الذي يقوم مقامه أن يكون مصدراً، ومنه قولهم:

آتيك صلاةَ العصر، والتقدير: وقتَ صلاةِ العصر، حيث حُذفَ الزمانُ المضافُ «وقت»، وأقيم المضاف إليه «صلاة» المصدر مقامه لدلالته دلالة عارضة على الزمان مما جعلهم يعربون المصدر مفعولاً فيه.

ومثله قولهم «آتيك قدوم الحاجِّ»، و«انتظرتك حلبَ ناقةٍ، أو نحرَ جزورٍ»، والتقدير: مقدار حلب ناقة، أو مقدار حلب جزور.

وقد يكون النائب عن الوقت المضاف اسم عين كقولهم «لا أكلمه القارظين»، والتقدير:لا أكلمه مدة غيبة القارظين.[92]

ومنه مع اسم المكان على قلَّته «جلستُ قربَ زيد»، والتقدير: جلستُ مكانَ قربِ زَيد، ولكنَّهم حذفوا المضاف «مكان»، مع إقامة المضاف إليه «قرب» مقامه، وإعرابه بإعرابه أي مفعولاً فيه لدلالته دلالة عارضة على المكان.

وقد استعمل الشاعر «قرب» في حالة حصار «ثلاث مرات» منصوبة مفعولاً فيه نيابة عن ظرف المكان، ومن ذلك قوله:

يقولُ على حافَّة الموت:

لم يَبْقَ بي مَوْطِنٌ للخسارة:

حُرٌّ أنا قربَ حريتي.

وغدي في يدي....

سوف أَدخُلُ، عمَّا قليل، حياتي،

وأولَدُ حُرّاً بلا أَبَوَيْن،

وأختارُ لاسمي حروفاً من اللازوردْ...[93]

حيث جاء ب «قربَ» مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية، وتقدير الكلام قبل الحذف: حرٌّ أنا مكانَ قربِ حريتي.

سادساً: ما جرى مجرى ظرف الزمان:[94]

أجرى النحاة مجرى ظرف الزمان ألفاظاً مسموعة عن العرب توسعوا فيها لتضمنها معنى «في»، فنصبوها على أنها مفعول فيه، ومنها قولهم:

«أحقاً أنَّك ذاهبٌ ؟» حيث «حقاً» مفعولٌ فيه منصوب على الظرفية الزمانية المجازية، متعلق

بمحذوف خبر مقدم، والمصدر المؤول المكون من «أنَّ»، وما دخلت عليه مبتدأ مؤخر؛هذا مذهب سيبويه، وعليه جمهور النحاة؛ إذ أصل الكلام عندهم: أفي حقٍّ ذهابُك؟ قالوا وقد صرح بذلك العرب في مثل قولهم:

أفي الحقِّ أنّي مغرَمٌ بك هائمٌ
وأنَّك لا خَلٌّ هواكِ، ولا خمرُ

الشاهد فيه (أفي الحق)

حيث صرح الشاعر بفي مع المصدر «الحق» مما يعني عندهم تضمنه معنى «في»، ولذلك أجروه مجرى ظرف الزمان، فأعرب بإعرابه.

وذهب المبرد، ووافقه ابن مالك على أنّ «حقاً» مصدر باقٍ على مصدريَّته، وأنّه جيء به بدلاً من اللفظ بفعله، وهو عندهم مفعول مطلق، والمصدر المكون من «أنّ»، وما دخلت عليه فاعل المصدر، وذلك في قولهم «أحقاً أنك ذاهب؟».[95]

ومثله قولهم «غيرَ شك أنّك قائمٌ»، و«جهدَ رأيي أنّك قائمٌ»، و«ظناً منّي أنّك قائمٌ»، فكلها تجري مجرى ظرف الزمان.

ولعلَّ مما يمكن إجراؤه مجرى ظرف الزمان مما جاء في حالة حصار، قول الشاعر:

الوميضُ، البصيرةُ، والبرقُ
قَيْدَ التَشَابُه...
عمَّا قليلٍ سأعرفُ إنْ كان هذا
هو الوحيُ...
أو يعرف الأصدقاءُ الحميمون
أنَّ القصيدةَ مَرَّتْ،
وأَوْدَتْ بشاعرها....[96]

فقوله «قيد التشابه» هذا اللفظ ليس زماناً، ولكنه تضمن معنى «في» لذلك يعامل معاملة الزمان كالأسماء التي جرت مجرى ظرف الزمان «حقاً، وجهد رأيي»، وغيرها ف«الوميض» مبتدأ، و«البصيرة» عطف بيان عليه، و«البرق» عطف نسق، و«قيد» مفعولٌ فيه ظرف زمان منصوب توسعاً يتعلق بمحذوف خبر لأنه جرى مجرى الزمان بتضمنه معنى «في»، فالوميض، والبصيرة، والبرق في قيد التشابه، وهو تعبير يشبه قولك: البناءُ قيدَ الإنشاءِ، والشيءُ قيدَ الاستخدامِ.

ومنه استعماله كلمة «مرة» مثناة «مرة واحدة»، ومفردة «مرة أخرى» في مثل قوله:

هل نسيءُ إلى أحدٍ ؟ هل نسيءُ إلى
بلدٍ، لو أُصِبْنا ولو من بعيد،
ولو مرَّةً، برذاذ الفرحْ؟[97]

حيث جاء ب«مرة» تتضمن معنى «في» لتجري مجرى ظرف الزمان.

سابعاً: التوسع في ظرف الزمان، والمكان:

تتوسع العرب بشروط عدَّدها النحاة[98] في استخدام ظرفي الزمان، والمكان، وذلك بجعلهما مجازاً فاعلاً، ومفعولاً به، فيجوز حينئذٍ الإضافة إليهما على معنى الفاعلية، أوالمفعولية، ومن النحاة مَنْ جعل إضافة الظرف إلى المصدر تعني أنه على جعله مفعولاً به توسعاً[99]، ويجوز الإسناد إليهما، وبذلك قد يدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي إذا ظهر أنّ المتكلم أسند الفعل، أو ما في معناه ليس إلى فاعله الحقيقي، وإنما إلى الزمان، أو المكان، أو..[100]

فالإضافة على معنى الفاعلية مثل (بل مكرُ الليلِ والنهارِ)[101]، فقد جعل الليل، والنهار ماكران بمعنى

أنَّهما فاعلا المكر، وليسا كذلك، بل المكر يحدث فيهما بمعنى أنَّهما ليسا فاعلا المكر، وإنّما المكرُ مفعولٌ فيهما، وهذا يُدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي.

والإضافة على معنى المفعولية قوله تعالى (للذينَ يُؤلونَ منْ نسائهم تَرَبُّصُ أربعةِ أشهرٍ)[102]، فجعل ظرف الزمان «أربعة أشهر» يقع عليه فعل التربص، وأضافه إلى مصدره، والتربص لا يقع على «أربعة أشهر»، وإنما فيها.

والإسناد إلى الظرف في المعنى مثل قوله تعالى (مَثَلُ الَّذينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) [103]؛ حيث أسند الوصف «عاصف» إلى «يوم»، و«ضمير اليوم» فاعل اسم الفاعل «عاصف»، وليس الأمر كذلك، بل العاصف «الريح»، والعصف يتمُّ في اليوم، وهذا يدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي.

وإذا ثبت من كلامهم التوسع بجعل الظرف المتصرف فاعلاً، ومفعولاً به، ومضافاً إليه على معنى الفاعلية، والمفعولية لزم من ذلك جواز الحكم عليه في حال النصب بأنَّه مفعول به تجوُّزاً ما لم يمنع من ذلك مانع، تقول « صمتُ اليومَ » فإذا جعلت اليوم مفعولاً به توسعاً، وقدَّمتَه على فعله قلت: اليومُ صمته، وإنْ جعلته ظرفاً قلتَ: اليومُ صمتُ فيه. [104]

ومن هذا التوسع في «حالة حصار» قول درويش:

بلادٌ على أُهْبَةِ الفجرِ،
صرْنا أقلَّ ذكاءً،
لأَنَّا نُحَمْلِقُ في ساعة النصر:
لا لَيْلَ في ليلنا المتلألئ بالمدفعيَّة
أعداؤنا يسهرون،
وأعداؤنا يُشعلون لنا النورَ
في حلكة الأقبيةْ. [105]

«بلادٌ على أُهْبَة الفجر»: هذا المقطع الذي كرره الشاعر حوالي «أربع مرات» في فقرات شعرية مختلفة من ديوانه «حالة حصار» يعني أنه:

بلادٌ في مكانٍ الفجرُ فيه يتأهبُ يستعدُّ [106]، وقد أضاف الشاعر المصدر «أهبة» لظرف الزمان المختص «الفجر» الذي يعني الوقت بعد حلكة الليل، حلكة الاحتلال، ليفيد هذا الوقت بكل إيحاءاته من الانتظار بعد العتمة الطويلة، والظلم، والتخبط، والاستعباد معنى الحرية بإطلاقها، ونورها، ووضوحها، وتمامها.

وهذه الإضافة تدخل الكلام في نوع من المجاز العقلي، إذ إنَّ الشاعر جعل إضافة المصدر «أهبة» لظرف الزمان «الفجر» على معنى الفاعلية، ف«الفجر» هو فاعل التأهب بما يرمز إليه من حرية، فالفجر يتأهب بمعنى الحرية تتأهب، وليس الأمر كذلك على جهة الحقيقة، وإنما الذي يتأهب هم المناضلون الذين يسعون لفجر الحرية!

ومنه أيضاً قول الشاعر:

فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيةً
سوف نحزنُ كالآخرين لأشياءَ شخصيَّةٍ
خبَّأتْها عناوينُ كبرى
فلم ننتبهْ لنزيف الجروح الصغيرة فينا
غداً حين يشفى المكانُ
نُحسُّ بأعراضه الجانبيَّةْ[107]

"يشفى المكان": أسند الشاعر الفعل "يشفى" إلى المكان، فجعله فاعله، وليس المكان الذي يشفى، وإنما تشفى جراحات الذين يعيشون فيه، وهذا أدخل

الكلام في نوع من المجاز العقلي علاقته المكانية.

الخاتمة:

لعلَّنا مازلنا ندور في أحجية الزمان، والمكان عند الشاعر محمود درويش في «حالة حصار» ليتضح لنا أنَّ:

السمات البارزة لاستعمال المفعول فيه زماناً، ومكاناً عند درويش «في حالة حصار»:

1- كثرة استعمال الإشارة إلى المكان كما مضى من خلال الحديث عنه في موضعه حتى إنه في موضع واحد كرَّر «هنا» خمس مرات في قوله:

واقفون هنا. قاعدون هنا. دائمون هنا. خالدون هنا.
خالدون هنا. ولنا هدف واحدٌ واحدٌ:
أن نكون.[108]

2- المزاوجة، والمزج في استعمال المفعول فيه زماناً ومكاناً، حتى لكأنَّ الزمان، والمكان اللذين يحدث الفعل فيهما في هذا الوطن المحاصَر في حالة حصارٍ معاً، ولعلَّ خير مثال على ذلك قول الشاعر:

هنا، عند مُنْحَدَرات التلال، أمامَ الغروب،
وفُوَّهَة الوقت،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعة الظل،
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،
وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ.[109]

فالشاعر هنا يزاوج في استخدام المفعول فيه بين المكان الذي بدأ به دفقته الشعريَّة "هنا عند منحدرات التلال... قرب بساتين مقطوعة الظل"، والزمان الذي تلاه، وارتبط به "أمام الغروب، وفوهة الوقت"، ويمزج بينهما حتى كأنَّ المكان عنده مقدم على الزمان، ولذلك بدأ به، بل لكأنَّ المكان والزمان بجبروتهما، والفلسطينيُّ محاصرٌ بهما، يفعل في هذا الحصار ما يفعل السجناءُ، يربي الأمل في الحرية!

3- كثرة استعمال أسماء الزمان، والمكان لمعانٍ نحوية أخرى تخرج فيها عن النصب مفعولاً فيه ظرف زمان، أو ظرف مكان، ولعلَّ من ذلك على سبيل المثال:

ألحياة
الحياةُ بكاملها،
الحياةُ بنقصانها،
تستضيفُ نجوماً مجاورةً
لا زمانَ لها.....
وغيوماً مهاجرةً
لا مكانَ لها
والحياةُ هنا
تتساءلُ:
كيفَ نعيدُ إليها الحياةْ.[110]

«لا زمانَ، لا مكانَ» كلٌّ من الزمان، والمكان خرج عن المفعول فيه زماناً، ومكاناً ليكون في معنى نحويٍّ آخر هو اسم «لا النافية للجنس»، ففي هذه الفقرة الشعرية:

الحياة هنا في ظل الحصار تستضيف نجوماً مجاورة لا زمان لها، وغيوماً مهاجرة لا مكان لها، فكأنه هنا في هذا الحصار توقف المكان، والزمان، ولم يبق للحياة مع الإشارة لهذا المكان «هنا» في حالة حصار إلا أنْ تتساءل كيف نعيد إليها الحياة!

4- استعمال بعض ظروف المكان المختصة مفعولاً فيه منصوباً على الظرفية المكانية، وذلك خروجاً عن الآلية النحوية التي وضعها النحاة لظرف المكان

المختص، مثل "خارج، وداخل"، والتي إذا أريد بها معنى الظرفية المكانية عند النحاة استعملوا لها حرف الجر "في"، ولم ينصبوها إلا سماعاً. [111]

5- استعمال بعض الظروف التي كثر استعمالها للمكان مفعولاً فيها ظروف زمان مثلما حدث مع "أمام الغروب"، ومع "هنا". [112]

6- استعمال أسماء ليست للزمان، وليست للمكان عرضت دلالتها على أحدهما. [113]

7- استعمال بعض الأسماء مفعولاً فيها لأنها أُجْرِيَتْ مجرى ظرف الزمان في الاستعمال. [114]

8- استعمال بعض الظروف بمعنى أدوات الشرط مثل "عندما، وحينما، وكلما". [115]

9- التوسع في استعمال الظرف المفعول فيه على معنى الفاعلية، والمفعولية ليدخل الكلام في المجاز. [116]

الهوامش والإحالات:

1. انظر محمد جمال الدين بن مالك، شرح التسهيل، تحقيق: د.عبد الرحمن السيد، وزميله، القاهرة، هجر للطباعة، والنشر، ط 1، 1990م(2/200).
2. انظر جمال الدين محمد أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وزميليه، القاهرة، دار المعارف، د. ت، د. ط.، مادة "ظرف".
3. انظر السابق، وانظر محمد الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل، ضبط وتحقيق يوسف البقاعي، بيروت، دار الفكر، 1995م (1/289).
4. انظر جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط6، 1974م (2/231)، وانظر خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح، دار الفكر، د. ت، د. ط. (1/337).
5. لمزيد من التفصيل في ترجمة الشاعر الكبير انظر محمود درويش، الأعمال الكاملة، إعداد علي مولا (6-4)، وانظر موقع مؤسسة الشاعر محمود درويش.
6. انظر موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت، د. ط.(2/41 فما بعدها).
7. انظر أبو القاسم الزجّاجي، كتاب حروف المعاني، تحقيق: د.علي الحمد،بيروت، مؤسسة الرسالة،ط2، 1986،(71)، وأحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق د.عمر الطباع (146)، وبتصرف ابن مالك، شرح التسهيل(2/219).
8. محمود درويش، الأعمال الجديدة، بيروت، رياض الريِّس للكتب، والنشر، ط 1، 2004م(230).
9. انظر محب الدين محمد بن يوسف ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق د.علي فاخر، وآخرون، القاهرة، دار السلام، ط1، 2007م (4/1935).
10. انظر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م (2/130 فما بعدها).
11. محمود درويش، الأعمال الجديدة (210).
12. انظر الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (مادة "قبل").
13. محمود درويش، الأعمال الجديدة (222).
14. انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/232).
15. محمود درويش، الأعمال الجديدة (180).
16. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة "حَيَنَ").
17. محمود درويش، الأعمال الجديدة (247).
18. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة "حين").
19. محمود درويش، الأعمال الجديدة (207).
20. انظر إسماعيل الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (مادة «صبح»).
21. انظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين (مادة "صبح").
22. محمود درويش، الأعمال الجديدة (183).
23. انظر أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني (1)، وانظر ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: د.مازن المبارك، وزميله، بيروت، دار الفكر، ط5، 1979م(207)، وانظر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (2/121).
24. سورة النمل الآية (40).

25. سورة النجم الآيات 13- 15.
26. النسائي، سنن النسائي، برنامج الألباني للحديث (4/22).
27. محمود درويش، الأعمال الجديدة 191.
28. ابن منظور، لسان العرب (مادة غدا).
29. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (266).
30. السابق.
31. سورة البقرة آية 25.
32. انظر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث، د. ت، د. ط.(2/220)
33. محمود درويش، الأعمال الجديدة (240).
34. انظر الزجاجي، كتاب حروف المعاني (59)، وابن هشام، مغني اللبيب (440)، وابن منظور، لسان العرب (مادة "متى").
35. محمود درويش، الأعمال الجديدة (214)، وسيأتي تحليل هذه الأبيات عند الحديث عن الإشارة إلى الزمان، والمكان.
36. انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/216).
37. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (441).
38. انظر المرجعين السابقين.
39. محمود درويش، الأعمال الجديدة (188).
40. انظر الخليل بن أحمد، العين (مادة "يوم")، وابن منظور، لسان العرب (مادة «يوم»).
41. محمود درويش، الأعمال الجديدة (188).
42. انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/225).
43. محمود درويش، الأعمال الجديدة (177).
44. السابق (247).
45. انظر أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة (146).
46. محمود درويش، الأعمال الجديدة (245).
47. في الديوان القدم، ولعل هذه أفضل.
48. في الديوان «والقذيفة».
49. محمود درويش، الأعمال الجديدة (185)، وانظر القصيدة على موقع «المؤتمر نت».
50. السابق (184).
51. انظر الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس (مادة «حول»).
52. محمود درويش، الأعمال الجديدة (214)، سيأتي تحليله كاملاً عند الحديث عن الإشارة للمكان، وللزمان.
53. انظر مغني اللبيب (176 فما بعدها)، وانظر ابن منظور، لسان العرب (مادة «حيث»)، والزبيدي، تاج العروس (مادة «حيث»).
54. محمود درويش، الأعمال الجديدة (261).
55. في المسألة خلاف بين النحاة انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/227)، والسيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع(2/113، 114).
56. محمود درويش، الأعمال الجديدة (247).
57. السابق (250).

58. انظر ابن سيده، المحكم، والمحيط الأعظم (مادة «خلف»).
59. محمود درويش، الأعمال الجديدة (194).
60. انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/233،234).
61. انظر الزجاجي، كتاب حروف المعني (23).
62. محمود درويش، الأعمال الجديدة (220).
63. السابق (183).
64. السابق (260).
65. انظر ابن مالك، شرح التسهيل (2/238)، انظر جمال الدين ابن هشام، مغني اللبيب (439)، جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (2/246).
66. محمود درويش، الأعمال الجديدة (186).
67. انظر بتصرف: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (مادة «نحو»)، وابن منظور، لسان العرب (مادة «نحا»).
68. محمود درويش، الأعمال الجديدة (240).
69. انظر البحث عند الحديث عن «كلَّما»، والمقطع الشعري المتصل بالأساطير.
70. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة «ورأ»).
71. محمود درويش، الأعمال الجديدة (223).
72. انظر السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (2/116).
73. محمود درويش، الأعمال الجديدة (200).
74. سورة المائدة (24).
75. سورة يونس (30).
76. سورة آل عمران 38، وانظر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (2/254).
77. محمود درويش، الأعمال الجديدة (179).
78. السابق (179).
79. السابق.
80. سورة المائدة(24).
81. محمود درويش، الأعمال الجديدة (227).
82. السابق (239).
83. سورة آل عمران 38.
84. محمود درويش، الأعمال الجديدة (214).
85. انظر بتصرف ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك(2/231)، خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح (1/338).
86. محمود درويش، الأعمال الجديدة (198).
87. السابق (226).
88. السابق (206).
89. السابق (191).
90. هذا كاستعمال أسفل في الآية الكريمة (والرَّكْبُ أسفلَ منكم) انظر في التعليق على الآية ابن مالك، شرح التسهيل (2/230)، أبو البركات ابن الأنباري: البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق: د. طه طه، وزميله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ط 1980م،(1/388).
91. محمود درويش، الأعمال الجديدة (229).
92. القارظين: اسم فاعل من القرظ، ويعني الذين يجنون القرظ، وهو النبات الذي يستخدم في دبغ الجلود، وكان اثنان من العرب قد خرجوا لذلك فلم يعودوا إلى الأبد، فضُرِبوا مثلاً. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة «قرظ»).
93. محمود درويش، الأعمال الجديدة (182).
94. انظر ابن هشام، أوضح المسالك (2/232)، وانظر خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح (1/339).
95. انظر خالد الأزهري، شرح التصريح على التوضيح (1/339).
96. محمود درويش، الأعمال الجديدة (192).
97. السابق (200).
98. انظر جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق: أحمد شمس الدين (2/123 فما بعدها).
99. انظر موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل (2/46).
100. انظر في ذلك عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 2، 1989م (293 فما بعدها)، وعبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد رضا، بيروت، دار المعرفة، ط 1982م(320 فما بعدها)، و د.عبد العزيز عتيق، علم البيان، بيروت، دار النهضة العربية، ط 1974م (142فما بعدها).
101. سورة سبأ 33.
102. سورة البقرة226.
103. سورة إبراهيم 18.
104. انظر بتصرف ابن مالك، شرح التسهيل (2/244).
105. محمود درويش، الأعمال الجديدة (178).
106. انظر في معاني أهبة ابن منظور، لسان العرب (مادة أَهَبَ).
107. محمود درويش، الأعمال الجديدة (207).
108. السابق (216).
109. السابق (177).
110. السابق (181).
111. انظر ذلك في موضعه من البحث.
112. انظر ذلك في موضعه من البحث.
113. تمَّ الحديث عنه في موضعه من البحث.
114. تمّ الحديث عنه في موضعه من البحث.
115. انظر ذلك في موضعه من البحث.
116. تمَّ الحديث عن ذلك في موضعه.

المصادر والمراجع:

- ابن الأنباري، أبو البركات، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق: د. طه طه، وزميله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1980م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلميّة، 2000م.

- ابن فارس، أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق د.عمر الطباع، بيروت، مكتبة المعارف،ط1، 1993م.
- ابن مالك، محمد جمال الدين، شرح التسهيل، تحقيق: د.عبد الرحمن السيد، وزميله، القاهرة، هجر للطباعة، والنشر، ط 1، 1990م.
- ابن منظور ، جمال الدين محمد أبو الفضل، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، وزميليه، القاهرة، دار المعارف، د. ت، د. ط.
- ابن هشام، جمال الدين عبد الله، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة، والنشر، ط 6، 1974م.
- ابن هشام، جمال الدين عبد الله، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق د.مازن المبارك، وزميله، بيروت، دار الفكر، ط5، 1979م
- ابن يعيش، موفق الدين يعيش بن علي، شرح المفصل، القاهرة، مكتبة المتنبي، د. ت، د. ط.
- الأزهري، خالد، شرح التصريح على التوضيح، دار الفكر، د. ت، د. ط.
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق محمد رضا، بيروت، دار المعرفة، ط 1982م.
- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط 2، 1989م.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، ط4.1990م، وفي الموسوعة الشعرية الإصدار الثالث.
- الخضري، محمد، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، ضبط وتحقيق يوسف البقاعي، بيروت، دار الفكر، 1995م.
- درويش، محمود، الأعمال الجديدة، بيروت،رياض الريِّس للكتب والنشر، ط 1، 2004م.
- درويش، محمود، الأعمال الكاملة، إعداد علي مولى، نشر إلكتروني(Pdf) منتدى مكتبة الاسكندرية.
- الزبيدي، مرتضى محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت.
- الزجاجي، أبو القاسم، كتاب حروف المعاني، تحقيق: د.علي الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986م.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار التراث، د. ت، د. ط.
- السيوطي، جلال الدين: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق أحمد شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م.
- عتيق، د.عبد العزيز، علم البيان، بيروت، دار النهضة العربية، ط 1974م.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق د.مهدي المخزومي، وزميله، دار الرشيد، 1982م.
- ناظر الجيش، محب الدين محمد بن يوسف، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، تحقيق د.علي فاخر، وآخرون، القاهرة، دار السلام، ط1، 2007م.
- النّسائي، أحمد بن شعيب، المجتبى من السنن «سنن النسائي»، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط2، 1986م، برنامج الألباني للحديث، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.